المحاضرة الثامنة

المغرب في عهد الدويلات المستقلة الثاني (التاريخ الحضاري) :

تلقب حكام بنو زيري بالأمراء كما التصقت بهم الألقاب الفخرية مثل ناصر الدولة باديس ، وشرف الدولة المعز ، وتاج الخلافة للحسن ، وكان يساعد أمراء الدولة في تسيير شؤونهم نواب ووزراء وولاة للأقاليم يسيرون مختلف المدن والحواضر ، كما تم إنشاء دواوين مثل ديوان البريد وديوان الشرطة وديوان الإنشاء (الكتابة والختم) ، كما اهتم الأمراء الزيريون بالجيش وكانوا هم من يتولون قيادته أثناء الحروب ، وتشكلت أسلحته أساسا من السيف والرمح الطويل والرقيق ، والحربة والخنجر والدرع والقوس وغيرها ، وضرب الزيريون السكة الخاصة بهم وكانت دور ضرب السكة موجودة في المنصورية والمهدية وطرابلس وزويلة [1] .

أما عن طبقات المجتمع الزيري فقد كانت متباينة حيث تألفت طبقة أولى تضم الصنهاجيين والشيعة العرب وكانوا يشغلون الوظائف السامية في الدولة وتضم كذالك أشراف العائلات العربية والبربرية وكذا رؤساء القبائل الهلالية بعد الغزو الهلالي ، وتألفت طبقة أخرى من الملاك الصغار والريفيين وأبناء القبائل الرحل ، بينما ضمت طبقة أخرى العبيد سواء السود أو البيض مسلمون أو نصارى [2] .

أما عن الجانب الاقتصادي فقد تنوعت المحاصيل الزراعية من قمح وشعير وزيتون وتمور ومختلف الغلال والفواكه والخضراوات ، فقد كانت القرى محاطة

---

[1] الهادي روجي إدريس : الدولة الصنهاجية - تاريخ افريقية في عهد بني زيري من القرن 10 إلى القرن 12 م - ، تحقيق : حمادي الساحلي ، ط 1 ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 1992 ، ج 2 ، ص 117 وما بعدها .

[2] المرجع السابق ، ج 2 ، ص ص 185 – 186 .

بالجنان والبساتين التي توفر مختلف المنتوجات ، إضافة إلى زراعات نسيجية كالكتان والقطن ، كما تنوعت الماشية بين الأغنام والخيول والإبل والأبقار، ناهيك عن الصيد البحري الذي كان نشيطا في مختلف السواحل ويوفر تغذية وفيرة ورخيصة للسكان ، أما الصناعة فكانت متنوعة وثرية كالغزل والنسيج وصناعة الأكسية الرقيقة ، وهناك صناعات جلدية وصناعة ورق الكاغد وصناعات الخزف والزجاج ومختلف الصناعات المعدنية والمنجمية [3] .

وعن النشاط التجاري فقد كانت التجارة الخارجية البحرية تشهد منافسة شرسة من قبل البزنطيين والنورمان في البحر الادرياتيكي ورُجار حاكم صقلية وغيرهم وكانت المعاملات التجارية البحرية تتم مع الصقليين والجمهوريات الايطالية (كالبندقية وبيزة وجنوة) ومصر وبلاد المشرق ، وكانت التجارة الخارجية البرية تتم خاصة مع بلاد السودان ، ومن أهم الصادرات الزيرية الزيت والفستق والزعفران واللوز والخوخ المجفف وقطع الجلد والقرب والأقمشة والعبيد والذهب وغيرها ، أما الواردات فتمثلت أساسا في القمح (خاصة سنوات القحط) والأخشاب والمعادن ومواد الصباغة والتوابل .[4]

أما عن الدولة الحمادية فكان نظام الحم وراثيا منحصرا في أسرة بني حماد وقد عرفت الدولة عاصمتان الأولى في القلعة (أبي الطويل) [5] والثانية في بجاية الناصرية ، وكانت الدولة مقسمة إلى مجموعة مدن (جزائر بني مزغنة ، بونة ، قسنطينة ، جيجل ، اشير ...) لكل مدينة حاكم عام يخضع لحاكم الدولة مباشرة ، وكان القضاء من أعظم وظائف الدولة وذلك لصلته بالدين والشرع وكان يتمتع باستقلالية عن السلطة السياسية ويتم تعيين القاضي من طرف حاكم الدولة ،

---

[3] الهادي روجي إدريس : المرجع السابق ، ج 2 ، ص ص 240 – 253 .

[4] المرجع السابق ، ج 2 ، ص ص 276 – 301 .

[5] تقع حاليا في بلدية المعاضيد شمال شرق المسيلة بنحو 35 كلم .

وتطور البريد وأصبحت العلائم النارية الجبلية مبنية بإحكام ، ذلك أن المرايا العاكسة كانت تقذف بالأنوار من أمكنة بعيدة فتتلقى المراكز الموالية الإشارة لتنقلها إلى التي تليها وهكذا .

كما اهتم الحماديون بالأسطول البحري [6] فقد قال عنها الحميري في الروض : ((وبجاية معلقة من جبل قد دخل في البحر يضرب فيه ولها دار لصناعة المراكب وإنشاء السفن)) [7] ومن أهم قواعد الأسطول الحمادي بونة وجيجل وبجاية والجزائر ، أما عن الجيش فقد كان يتألف من فرق لكل فرقة وظيفتها فهناك الفرسان والمشاة وتحت إشرافهم فرق أخرى ، أما عن أسلحة الجيش فكانت كما الجيوش الأخرى آنذاك .

كان الدينار هو العملة الرسمية للدولة الحمادية وكان يسمى الدينار المغربي [8]

وتعددت ألوان النشاط الزراعي وتعدت معه المحاصيل مثل الحبوب (قمح شعير) والفول والعدس والحمص والتين والأعناب والرمان والمشمش والتوت والخوخ وكثير ومن الفواكه والخضراوات ، ومن أهم الصناعات صناعات الأكسية والمنسوجات وصناعة السجاد والألبسة الفاخرة والمنسوجات المطرزة بالذهب ، وصناعات الخزف والبلاط والتحف الفنية وصناعات الزجاج والفخار والصناعات المعدنية بأنواعها .

أما عن التجارة فقد كانت من أهم الأنشطة الاقتصادية لتوفر الأمن مع الأشقاء الزيريين والمرابطين وسياسة المسالمة مع العرب والأوربيين وتوفر شريط ساحلي طويل مشجع على التجارة ناهيك عن أهمية الموقع للحواضر الحمادية وتوفر

---

[6] عبد الحليم عويس : دولة بني حماد ، ط 2 ، دار الصحوة ، القاهرة ، 1991 ، ص ص 205 – 208 .

[7] الحميري : الروض المعطار ، ص 81 .

[8] عبد الحليم عويس : المرجع السابق ، ص ص 208 ، 210 ، 213 .

المرافئ والأسواق وفي داخل البلاد الحمادية نشطت التجارة هي الأخرى فتنوعت طرق المواصلات والأسواق .

أما عن الحياة الاجتماعية فقد تشكل المجتمع الحمادي من أطياف متعددة بربرية وعرب هلالية وأندلسيون لاجئون وصقالبة وجاليات مسيحية وغيرها .

كما نشطت الحياة العلمية في بلاد الحماديين وساهمت حواضرها في دعم الحقل العلمي الوسيطي ومنهم أبو القاسم عبد الرحمن المعروف بابن القالمي الذي كتب للبلاط الموحدي فيما بعد (عبد المؤمن بن علي) ومن الشعراء الحماديين أبو حفص عمر بن فلفول وكذلك الشاعر ابن أبي المليح الطيب الكاتب الشاعر الطبيب ، ومن كتاب الحماديين وشعرائهم علي بن أبي الرجال من أشراف تاهرت (نسب للزيريين لأنه عاش في بلاط المعز) ومن المشهورين كذلك أبو الفضل المعروف بابن النحوي وهو فقيه ومجتهد وأديب شاعر (قصيدة المنفرجة) ، وكذلك يوسف الورجلاني من أشهر أدباء الحماديين [9] ، ومن ابرز علماء قلعة بني حماد علي بن معصوم القلعي ، إبراهيم بن حماد أبو إسحاق القلعي ، أحمد بن محمد بن أحمد المسيلي ، علي بن أبي بكر القلعي ، حسن بن علي بن محمد المسيلي أبو علي ، محمد القلعي ، محمد بن محمد بن أبي بكر المصور القلعي أبو عبد الله وغيرهم [10] ومن أهم المؤسسات العلمية في دولة بني حماد المساجد والكتاتيب والزوايا والمكتبات وبيوت العلماء [11] .

---

[9] عبد الحليم عويس : المرجع السابق ، ص 219 وما بعدها .

[10] عبد الغني حروز: الحياة العلمية في قلعة بني حماد (408-461هـ/1017-1070م) ، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الوسيط ، المدرسة العليا للأساتذة ، بوزريعة (الجزائر) ، 2010 – 2011 ، ص100 وما بعدها .

[11] للاستزادة حول العوامل المشجعة على تطور الحياة العلمية انظر: حروز عبد الغني : المرجع السابق ، ص 41 وما بعدها .

أما عن دولة المرابطين فقد كانت لها اليد الطولى على كثير من الجغرافية المغربية والأندلسية ، وقد استطاع المرابطون تشكيل دولة كانت لها الأثر البالغ في الإسهام الحضاري للمغرب والأندلس ، وقد تشكل المجتمع المرابطي من أخلاط شتى كالبربر الذين مثلوا السواد الأعظم ومجموعات أخرى مثل العنصر العربي الذي استقر بالمدن وأقليات أخرى كالصقالبة والروم والسودان وأهل الذمة من يهود ونصارى والاغزاز (الأتراك الغز استخدمهم يوسف بن تاشفين في جيشه) [12] ، أما عن طبقات المجتمع المرابطي فتشكلت من الطبقة الحاكمة والتي تضم الأمراء ، والكتاب والوزراء والولاة ومشرفوا المدن والفقهاء [13]، أما الطبقة الوسطى فتضم التجار والسماسرة وأصحاب المهن الحرة وأصحاب الوظائف العامة المتوسطة ، أما طبقة العامة فتشمل صغار التجار والباعة المتنقلين والفلاحين والحرفيين والصناع وأصحاب المهن ، وتشمل هذه الطبقة كذلك على المهمشين من الأيتام والعبيد والمتسولين [14] ، وقد اهتم المرابطون بالنظام المالي فسكّوا العملة النقدية وكثرت موارد الدولة التي ساهمت في تجهيز الحملات العسكرية ودفع المرتبات والأرزاق وإقامة المنشات .

وتنوعت المنتوجات الزراعية في بلاد المغرب المرابطية بفضل توفر الأراضي وطرق الري والسقي فتعددت المنتوجات وكذلك بالنسبة للصناعة التي تنوعت هي الأخرى كصناعة السفن والزجاج والحديد والنحاس واستخراج الزيوت واستخلاص

---

[12] عيسى بن الذيب : المغرب والأندلس في عصر المرابطين – دراسة اجتماعية واقتصادية 480 – 540 هـ - ، أطروحة دكتوراه ، جامعة الجزائر 2 ، 2008 – 2009 ، ص 1 .

[13] كان للفقهاء دور محوري في الدولة فقد وصف عبد الواحد المراكشي ذلك بقوله : « كان لا يقطع أمرا في جميع مملكته دون مشاورة الفقهاء ، كما كانت أمور المسلمين راجعة إليهم ، وأحكامهم صغيرها وكبيرها موقوفة عليهم » . عبد الواحد المراكشي : المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، تحقيق : عمران المنصور ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 1998 ، ص 121.

[14] للاستزادة عن طبقات المجتمع المرابطي انظر: عيسى بن الذيب : المرجع السابق ، ص 99 وما بعدها .

السكر وصناعة الملبوسات المتنوعة ودبغ الجلود ، وكذلك الشأن بالنسبة للتجارة التي انتشرت ولقيت اهتماما لتوفر المنتوجات وتعدد الطرق التجارية وكثرة الموانئ على البحر ومن أهم المراكز التجارية مراكش وفاس ودرعة وسجلماسة ، ومن أهم الصادرات المرابطية القطن والقمح والسكر والزيتون والأسماك والنحاس المسبوك واهم الواردات الذهب والزئبق والعطور والنسيج وغيرها [15] . وعلى أية حال فقد كان للمرابطين دور في قيام أو توسع تجمعات عمرانية مثل مراكش ومكناس وتلمسان وغيرها كما لا يمكن نسيان الدور المرابطي في نشر الإسلام الصحيح وترسيخ المذهب المالكي في المغرب ، كما تدل الآثار الباقية في مراكش وتلمسان والجزائر وغيرها على مدى مساهمة المرابطين في بعث الحركة العمرانية والفنية في المغرب ومن أهم المخلفات المرابطية الماثلة إلى اليوم تلك المساجد في الجزائر وندرومة وتلمسان ومراكش ناهيك عن بقايا الأسوار كما في تلمسان ومراكش أو بقايا القلاع التي كانت أهدافها عسكرية صِرفة كقلعة بني تاودا ، أو قلعة آمرجو وقلعة تاسغيموت في المغرب [16]

[15] عبد العزيز شهي : المرجع السابق ، ص ص 71 – 72 .

[16] عبد العزيز سالم : المرجع السابق ، ج 2 ، ص 747 وما بعدها .